## الباب الثالث:

# الفصل الأول
## أحكام النقدية

### الشعر الجاهلي:

قال حماد إنه يستطيع تمييز أشعار العصور الأدبية المختلفة، واستخدم مصطلحين في غاية الأهمية والدلالة، وهما: قديم ومحدث. ويعني المصطلح قديم، الشعر الجاهلي وشعر صدر الإسلام بصفة عامة، أما المحدث، فيعني شعر الأخطل والفرزدق وجرير. وهذه ليست وجهة نظر حماد وحده، بل وجهة نظر علماء آخرين، حتى إن الأصمعي يقول:

**«جرير والفرزدق والأخطل... هؤلاء لو كانوا في الجاهلية، كان لهم شأن، ولا أقول فيهم شيئاً، لأنهم إسلاميون»**[1].

بل إن أبا عمرو بن العلاء يقول:

**«لو أدرك الأخطل من الجاهلية يوماً واحداً، ما قدمت عليه جاهلياً ولا إسلامياً»**[2].

وهو قول يكشف عن إعجابه بشعر الأخطل.

بل تبلغ العصبية بأبي عمرو، معاصر حماد، إلى أنه لا يحتج ببيت إسلامي، قط، يقول الأصمعي عنه:

---

(١) فحولة الشعراء، ص ١٢.
(٢) المصدر نفسه، ص ١٣.

**«جلست إلى أبي عمرو عشر حجج، ما سمعته يحتج ببيت إسلامي»**[1].

وسوف نرى أن حماداً كان يروي شعر عدي بن زيد، مع أن الأصمعي يقول:

**«عدي بن زيد وأبو دؤاد الإيادي، لا تروي العرب أشعارهما، لأن ألفاظهما ليست بنجدية»**[2].

فقد وسع حماد دائرة روايته لتشمل كل هؤلاء وكان يتعاطف معهم، بل كان يلح على شعراء العصر الأموي لروايته أشعارهم، كما هي الحال مع الفرزدق[3] والكميت[4].

ولا شك أن رحابة الصدر هذه، كانت إحدى توجهاته، بدلاً من الانغلاق على الماضي والتقوقع فيه، ولا شك أيضاً أن هذا الاتساع في الرواية، أمده بقدرة نقدية، تشحذ لديه حاسة التذوق بحيث أصبح متمكناً من تحسس اللمسات الفنية عند عدد كبير من فحول شعراء هذه العصور. ولعله بهذا، لم يكن ليقع في مزالق مثل تلك المزالق التي وقع فيها غيره جراء الانغلاق والتقوقع، أو التنافر الشخصي، فهذا أبو رياش القيسي، كان معروفاً بالتحامل على شعراء عصره، خاصة أبا تمام والبحتري، حتى إن نسخ ديوانيهما قلت بالبصرة في وقته لقلة الرغبة فيهما[5].

وهذا الأصمعي يبدي إعجابه ببيتين ينشدهما إسحاق الموصلي بقوله:

---

(١) الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ٣٢١.
(٢) المرزباني، الموشح، ص ٦٦.
(٣) البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٤، ص ٧١.
(٤) المرزباني، الموشح، ص ١٧٨.
(٥) القاضي الجرجاني، الوساطة، ص ٥١.

«والله هذا الديباج الخسرواني»، فلما تبين أنهما لإسحاق قال: «لا جرم والله، إن أثر التكلف فيهما ظاهر»[1].

أما أحكامه النقدية على الشعر، فهي أحكام لا بد أنها كانت متأثرة بالوسط الثقافي الذي نشأ فيه، وسبق إليه غيره. فإذا كنا ما زلنا متفقين على أنه ممن تقدمت سنين ميلاده، فسنتفق أيضاً على أن اقترابه من مجالات النقد السابق عليه، كانت جد قوية، أي إنه من المفترض ألا يطرح حماد طروحات نقدية ذات عمق وتفصيل، أو أن يلزم نفسه بمتابعة العناصر الفنية عند الشعراء، فمهمته الرئيسة كانت الرواية، وإحساسه كان هو الذي يقوده إلى إبداء ملاحظاته الفنية عن الشعراء، وهذا واضح من بعض ما تبقى لدينا من أحكامه، ومنها قوله:

«أشعر الناس عمرو بن قميئة لقوله:

رَمَتْنِي صُرُوفُ الدَّهْرِ مِنْ حَيْثُ لاَ أَدْرِي ... فَمَا بَالُ مَنْ يُرْمَى وَلَيْسَ بِرَامِ

فَلَوْ أَنَّهَا نَبْلٌ إِذاً لاَ تَقَيْتُهَا ... وَلٰكِنَّنِي أُرْمَى بِغَيْرِ سِهَامِ[2]

وعبارة «أشعر الناس»، عبارة نقدية قديمة يتداولها أصحاب الذوق. ولو تأملنا في هذا الحكم، لنلتمس دافعه إلى هذا، لأمكن تصور انطلاقه في حكمه من موقف تصويري يبعثه هذان البيتان، فصروف الدهر ترمي كما يرمي الإنسان، وهو ما يعرف بالاستعارة المكنية، غير أن مادة الرمي مجهولة، غير معروفة من ضمن الآلات، ولكنه أضاف إلى أن المرمي عاجز عن الدفاع عن نفسه كل العجز، مع قدرته على صد النبال أو السهام الحقيقية، وهذا ما يعطي التشخيص بعداً نفسياً تأثيرياً قوياً. لقد أدرك حماد

---

(١) المصدر نفسه، ص ٥٠.

(٢) ابن سعيد، نشوة العرب، جـ ٢، ص ٦٢٦. وانظر الأغاني، جـ ١٨، ص ٧٩.

قيمة الصورة، وعبر عن جمالها هذا التعبير المتداول، ولكنه في الحقيقة كان يستبطنها.

ومن هذه الأحكام، قوله عن امرىء القيس:

**«امرؤ القيس، أحسن الجاهلية تشبيهاً»**[1].

ونلاحظ فكرة التعميم، كما هي الحال عند غيره من العلماء، **«أشعر»**، **«أحسن»**، وهنا نجد أنه متفق مع أراء غيره ممن يقول مثل مقولته، وممن لاحظ بروز عنصر التشبيه عند امرىء القيس[2]. ونجد الرأي نفسه، وهو يقول مجيباً على سؤال عنه:

**«ما أقول؟ مبتدىء بإحسان، والناس بعده له تبَع لا يَلحقونه»**[3]. وهو رأي شاركه فيه آخرون كذلك[4].

وهو يجيب عن سؤال وجه إليه حول سبب تفضيل النابغة، فيقول:

**«إن النابغة إن تمثلت ببيت من شعره، اكتفيت به، مثل قوله:**

**حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً وَلَيْسَ وَرَاءَ ٱللَّهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبُ**

**بل لو تمثلت بنصف بيت من شعره، اكتفيت به، وهو قوله:**

**وليس وراء الله للمرء مذهب.**

**بل لو تمثلت بربع بيت من شعره اكتفيت به، وهو قوله:**

**أَيُّ الرِّجَالِ المُهَذَّبُ»**[5].

---

(١) البغدادي، الخزانة، جـ ١، ص ١٩٦.
(٢) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، جـ ١، ص ١١٠.
(٣) المرزباني نور القبس، ص ٢٦٩.
(٤) الأغاني، جـ ١٧، ص ٣١٥.
(٥) ابن رشيق، العمدة، جـ ١، ص ٢٨٢. وانظر الخبر في الأغاني، جـ ١١، =

فهذا الحكم لا يتوجه إلى العناصر الفنية من استعارة وتشبيه، وإنما يتوجه إلى العناصر الصياغية، فأي بيت من شعر النابغة، لا يختلف في تركيبه عن أي جزء فيه إحكاماً وتماسكاً، بحيث تؤدي العبارات معناها مجتزأة أو متتابعة. وهو يقدّم على ذلك شاهداً من شعره. وهذه الملاحظة الصياغية، ملاحظة ذات قيمة كبيرة، لأنها ترشّح لما درج عليه النقاد بعد ذلك من إدخال النابغة ضمن عبيد الشعر[1]، حتى إنه ليقول عنه، وقد سئل عنه أيضاً:

**«ذاك كاتب الشعراء، أحسنهم نمطاً، وأحضرهم احتجاجاً»**[2].

وهذا المعيار النقدي، الذي شاع عما يسمى بمدرسة الصنعة، أو على حد تعبير الجاحظ: «**عبيد الشعر**»[3] ظاهر في حكمه على شعر زهير:

**«ذاك حكيم العرب، أشدهم أسر كلام ومبالغة في مَدْح»**[4].

ومن الملاحظ أن حماداً سبق غيره إلى هذه الالتفاته، وإن لم يذهب مذهبهم في القول بفكرة «**عبيد الشعر**»[5].

ومع ذلك، فإن هذا إنما يكشف عن أن حماداً كان ذا ذائقة خاصة، ورؤية متميزة، وهو أمر يؤكد عمق صلته بالتراث، إلا أن هذه الأحكام ـ كما هو ملحوظ ـ أحكام عابرة، وإن كانت دقيقة صائبة، نابعة من الشعر نفسه. أما الأحكام التي كانت صدى لنفسه، وترجيعاً لتجاربه في الحياة،

---

= ص ص ٧ ـ ٨. وانظر لقائه مع الجني، وأحكاماً أخرى لهما، المرزباني، نور القبس، ص ص ٢٧٠ ـ ٢٧١.

(١) ابن رشيق، العمدة، جـ ١، ص ١٣٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٨١، وانظر: المرزباني، نور القبس، ٢٧٠.

(٣) البيان والتبيين، جـ ١، ص ٢٠٦.

(٤) المرزباني، نور القبس، ص ٢٧٠.

(٥) الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ص ٢٠٤ ـ ٢٠٦.

فهي صلته بشعر الأعشى، الذي ارتبط به ارتباط تواشج ومحبة، فقال، وقد سئل عنه:

**«ذاك أجمعهم للمعاني، وأكثرهم شعراً وفنوناً»**[1].

وإذا كان هذا الحكم، في الواقع، حكماً مشابهاً لتلك الأحكام التي عرضت لنا سابقاً، فهو يبدي ملاحظات قيمة تختص بالنوع والكم معاً: التقاط المعاني، وكثرة الشعر، والتنوع، في الأغراض الشعرية. ولهذه الخصائص الفنية والموضوعية، كان يقول عن الأعشى:

**«ما أقيس به أحداً»**[2].

وهو يتفق في رؤيته لشعر الأعشى مع ما أشيع عنه من أنه **«صناجة العرب»**، فها هو يعيد علينا ذلك الحكم العام عن **«أشعر الناس»**، فيجيب من يسأله عن ذلك قائلاً:

**«صناجة العرب... سمي به لقوله:**

**وَمُسْتَجِيبٍ تَخَالُ الصَّنْجَ تَسْمَعُهُ إِذَا تَرَجَّعُ فِيهِ القَيْنَةُ الفُضُلُ**[3]

بل يكرر الموقف النقدي من شعر الأعشى، فيجيب سائلاً أخر عن **«أشعر العرب»**، فيقول: الذي يقول:

**نَازَعْتُهُمْ قُضُبَ الرَّيْحَانِ مُتَّكِئاً وَقَهْوَةً مُزَّةً رَاوُوقُهَا خَضِلُ**[4]

ويظل حماد متمسكاً بهذا الرأي عن الأعشى، ومصراً على الموقف

---

(١) المرزباني، نور القبس، ص ٢٧٠.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٦٩. والبيت في ديوان الأعشى، ص ٥٩. من قصيدته المعلقة:

وَدِّعْ هُرَيْرَةَ إِنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ وَهَلْ تُطِيقُ وَدَاعاً أَيُّهَا الرَّجُلُ

(٤) الأغاني، جـ ٩، ص ١٠٩، والبيت للأعشى في ديوانه، ص ٥٩ من قصيدته المعلقة.

منه، حتى حينما يبعث إليه المنصور يسأله عن «**أشعر الناس**»، فيقول في صراحة ووضوح:

«**نعم ذلك الأعشى، صناجتها**»[1].

لقد تمسك حماد بموقفه من الأعشى، وكرره في أكثر من مناسبة، مما يعني وجود علاقة نفسية وفكرية حميمة به. فالأعشى يتميز عن غيره من الشعراء بهذا التنوع، وهذه الموسيقى التي تشيع في شعره، ثم إنه كان ممن يحرص على المعنى، مثلما يحرص الشعراء والفحول الآخرون، ولكنه كان يعمد إلى تراكم المعاني حسبما يقول: «**أجمعهم للمعاني**». ومن ناحية أخرى، فالأعشى كان رائد الخمرة في عصره[2]، وحماد كان مولعاً بالنبيذ مغرماً به. ويمكن أن نضيف إلى ذلك، أن الأعشى كان يصور الحياة الحضرية التي عاشتها الحيرة في كشف ووضوح، وهي الحياة التي كانت تنعكس بعض مظاهرها على الكوفة مدينته، والتي تعد امتداداً حضارياً للحيرة القريبة منها.

ويضاف إلى هذا الإعجاب باتجاه الأعشى إلى الحديث عن الخمرة، ذلك الإعجاب به في حديثه عن المرأة، فالأعشى يقول:

**كَفَى بِالَّذِي تُولِينَهُ لَوْ تَجَنَّبَا ... شِفَاءً لِسُقْمٍ بَعْدَمَا كَانَ أَشْيَبَا**
**وَلٰكِنَّمَا كَانَتْ تَوَابِعُ حُبِّهَا ... تَوالِيَ رِبْعِيِّ السَّقَابِ فَأَصْحَبَا**
**فَتَمَّ عَلَى مَعْشُوقَةٍ لاَ يَزِيدُهَا ... إِلَيْهِ بَلاَءُ السَّوْءِ إِلاّ تَحَبُّباً**

«**وكان حماد الراوية يتعجب من قوله: «فتم على معشوقة»، ويقول: هذا ـ والله ـ غاية العشق ونهاية الإحسان في النسيب**»[3].

---

(١) العباسي، معاهد التنصيص، جـ ١، ص ١٩٧.

(٢) انظر عن الأعشى: الجوزو، صناجة العرب.

(٣) الآمدي الموازنة، جـ ٢، ص ١٢٥. وروايته الديوان، ص ١١٣:

كفي بالذي توليه لو تجنبا ... شفاء لسقم بعدما عاد أشيبا =

إن تعليقه المقسم عليه: «**هذا والله غاية العشق ونهاية الإحسان في النسيب**»، تعليق، يعود بنا إلى تلك الأراء التي كانت تصدر منه عند التأثر المباشر بالجمال، دون الدخول في التفصيل، أو بيان الأوجه الجمالية في الشيء. ولعله نظر إلى مجمل الأبيات وما تنقله من معان، حتى انتهت إلى هذه النتيجة، فالأبيات تقول:

إن ما تولينه إياه من الهجر والصدود والإيذاء، لحقيق بأن يُزَهِّدَه فيك ويبرئه من حبك ـ لو أنه يستطيع تجنبا ـ وقد علاه الشيب. ويشبِّه حبها وقد وُلد في قلبه صغيراً بولد الناقة، لم يزل يشب وينمو حتى أصبح فحلاً صاحب أبناء كبار. كذلك ملكت عليه أمره، وثبت هو على حبها، لا يزيده ما يكابده فيها من الشوق إلا إمعاناً في الود والتقرب.

وتؤكد جميع آرائه السابقة اعتماده على الذوق دون إبداء التفاصيل وتحديد وجهات النظر، مما يعبر عن مرحلة نقدية أولية لها الطوابع نفسها، ويتضح هذا فيما رواه الراغب عنه:

«قال حماد الراوية: أفضل بيت من الشعر قيل في الأمثال:

**يَقُولُونَ يَسْتَغْنِي وَوَاللَّهِ مَا الغِنَى  مِنَ المَالِ إِلاَّ مَا يُعِفُّ وَمَا يَكْفِي**[1]

---

= على أنها كانت تأول حبها  تأول ربعي السقاب فأصحبا
فتم على معشوقة لا يزيدها  إليه بلاء الشوق إلا تحببا

أولاه المعروف: صنعه، له، ويقصد ما توليني من الهجر والجفاء. تأول الكلام: دبره وقدره وفسره. الربعي: ولد الناقة في الربيع، أول الإنتاج. السقاب: جمع سقب، وهو ولد الناقة ساعة يولد. أصحبا: أصحب الرجل، إذا بلغ ابنه فصار مثله، وصار له كالصاحب، أي إن حبها كان صغيراً ثم كبر ونما.

تم: تمَّ على أمره، مضى عليه.

(١) بهجة المجالس، جـ ١، ص ٢٠٧.

وهكذا نجد أن هذه الأحكام اليسيرة، تعبر عن تعلق شديد **بالشعر** الجاهلي، وعن فهم عميق لأفكاره ومعانيه واتجاهاته، بحيث نجد **أن** حماداً كان يتصل بالتراث اتصال محبة وقربى ومعرفة، ولم يكن **مجرد** راوية، اتخذ الرواية حرفة، بل راوية جمع بين المنفعة المادية **والمتعة** النفسية.

obeikandl.com

# الفصل الثاني
## الشعر في صدر الإسلام

يُعَد شاعر الرسول ﷺ، حسان بن ثابت أشهر شاعر في صدر الإسلام. وليس لدينا عن حماد رأي واضح فيه، أو في غيره من شعراء هذا العصر: وفي العقد الفريد، أن الأصمعي قال:

«سمعت حماداً الراوية، وأنشده رجل بيت حسان:

**يُغَشَّوْنَ حَتَّى مَا تَهِرُّ كِلَابُهُمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ المُقْبِلِ**

فقال: «ما يُعرف هذا إلا في كلاب الحانات»[1].

فهل غابت عن حماد هذه الصورة الشعرية التي يتعاورها الشعراء عن إقبال الضيف ليلاً، ونباح الكلاب، تهيئة بمقدمه؟ أم أنه هو نفسه كان غير معجب بشعر حسان، أم أن طريقة إنشاد الرجل هي التي أثارته؟ إن الجواب على هذا غير واضح، ولعل جوابه الآخر على مثل هذا الإنشاد، يلغي الاحتمالين الأولين، ويرجح الاحتمال الأخير، فقد قال لمن أنشده بعض شعر لشاعر آخر، وفي رواية الأصمعي نفسها:

**لِمَنْ مَنْزِلٌ بَيْنَ المَذَانِبِ وَالجَسْرِ.**

«ما يَعرف هذا إلا دار الماسيديين»[2].

---

(١) جـ ٥، ص ٣٣٠.

(٢) المصدر نفسه.

**وهناك دعم آخر لهذا الترجيح، فقد علق عندما سمع مغنية تغني:**

**عاد قلبي من الطويلة عاد.**

قائلاً:

**«وثمود، فإن الله عز وجل لم يفرق بينهما. وذلك لأن أصل الشعر، هو:**

**عاد قلبي من الطويلة عيد»**[1].

ومهما تكن الاحتمالات، فليس لتعليقه على بيت حسان علاقة بالنقد الفني، وإنما له علاقة بالانطباع الشخصي والعلاقة الشرطية بين الصورتين.

أما عدم روايته لشعر كعب بن مالك، أو لشعر عبد الله بن رواحة، أو حتى لشعر حسان، أو أي شعر إسلامي، فإنه يقع في نطاق التربية الفكرية والثقافية التي تأسس في نطاقها حماد؛ ذلك أن مقياسه دوماً هو الشعر الجاهلي، فإذا ما خرج أيُّ شعر عن هذا المقياس، انصرف عن روايته، وهذا ليس جديداً في النقد القديم، فقد لاحظ الأصمعي ذلك عندما قال مقولته الشهيرة:

«الشعر نكد بابه الشر، فإذا دخل في الخير ضعف، هذا حسان بن ثابت فحل من فحول الجاهلية، فلما جاء الإسلام سقط شعره»[2].

---

(١) الأصفهاني، الأغاني، جـ٦، ، ص ص ٨٠ ـ ٨١. العيد: ما يعتاد من نوب وشوق وهم.
وتمام البيت:

**واعتراني من حبها تسهيد**

انظر: ابن الأنباري، شرح القصائد السبع، ص ٢١١.

(٢) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، جـ١، ص ٣٠٥.

وتؤكد هذه النتيجة أنه كان يروي شعر الحطيئة، فقد روى قصيدة الحطيئة في أبي موسى الأشعري، في خلافة عمر رضي الله عنه ـ كما سنناقش هذا بعد حين ـ ولعل روايته لشعر الحطيئة تدخل في ضمن الإطار الجاهلي الذي التزم به الحطيئة.

obeikandl.com

# الفصل الثالث

## الشعر الأموي

### عمر بن أبي ربيعة والأحوص:

توثقت علاقة حماد بالشعر الجاهلي توثيقاً شديداً، ولم نجد له آراء بينة عن شعر حسان ولا عن شعر سواه من المخضرمين الذين لم يدركوا العصر الأموي، بل لم نجد له رأياً حتى عن الشعراء المخضرمين الذين أدركوا العصر الأموي، وفيهم تميم بن مقبل، الذي كان حماد يروي شعره، كما ذكرنا من قبل في استنشاده مروان بن أبي حفصة. أما في العصر الأموي، فإنه كان أكثر وضوحاً، وأبرز ظهوراً، فقد سئل عن شعر عمر بن أبي ربيعة، فقال:

**«ذلك الفستق المقشر الذي لا يشبع منه»**[1].

وهذا الحكم، لا يخرج في طبيعته عن الأحكام القديمة، والجديد فيه هذا التشبيه بالفستق المقشر الذي لا يشبع منه، فلم يتناول حماد في عباراتٍ بيِّنةِ الصياغةَ، أو الخيال، أو التركيب، وإنما لجأ إلى التشبيه، ويدل هذا التشبيه على أنه لذيذ ممتع سار للنفوس، محبب إلى القلوب،

---

(١) ابن عبد ربه، العقد جـ ٥، ص ٢٧١.

وبه معان تشتمل على الصياغة، وعلى الخيال، وعلى التركيب، وهي ملاحظات أكدتها وجهات النظر القديمة[1].

ومن آرائه المقتطفة السريعة في شعر الغزل، أنه كان يقدم الأحوص في النسيب[2]، أما كيف كان يقدمه، وعلى أية أسس كان هذا التقديم، فإن الجواب عن ذلك غير جلي أيضاً، ولعله كان يقدمه لما يتميز به نسيب الأحوص من رقة في العبارة، وصراحة في التعبير، وإضافة إلى ذلك فإن عمر بن أبي ربيعة والأحوص، كانا امتداداً للتعبير في الجاهلية، ميدانه المتخصص فيه، ومن هنا رأيناه يروي بعض شعر ابن أبي ربيعة[3] وسنراه يتعصب له.

---

(١) انظر الأغاني، جـ ١، ص ١٢٤.
(٢) ابن سلام، طبقات...، ص ٥٤٣.
(٣) الأغاني، جـ ١، ص ١٣٨.



obeikandl.com

# الفصل الرابع

## الأخطل والفرزدق وجرير

### أ ـ الأخطل:

تبينا مقدار تعلق حماد بالشعر الجاهلي وشعر الأعشى خاصة، ثم تكشف لنا أنه يميل إلى شعر الغزل، كما يمثله عمر بن أبي ربيعة والأحوص، في العصر الأموي، ولا بد لكل مهتم بالأدب في هذا العصر، أن يقف موقفاً صريحاً من شعرائه المشاهير الثلاثة: الأخطل والفرزدق وجرير. وموقف حماد من الأخطل واضح صريح، فهو يجيب من سأله عن الأخطل قائلاً:

«ذاك شاعر قد حبب شعره إليَّ النصرانية»[٦].

وبالتأكيد، فإن حماداً لم يعن نصرانية الأخطل، لأن شعر الأخطل ليس في النصرانية، فهو شعر خالٍ منها[١]، وإنما كان الأخطل متأثراً في منهجه الخمري بشعر الأعشى[٣]، شاعر حماد الأول، أي شاعر الخمرة والحانة، من الناحية الموضوعية، إلى جانب تنوع الأغراض عند الأخطل أيضاً، وجمال العبارة وإشراقها وتماسكها: «جمع المعاني»، من الناحية

---

(١) المرزباني، نور القبس، ص ٢٧٠.

(٢) انظر، حاوي، الأخطل، ص ٢٩.

(٣) حسين، أساليب الصناعة، ص ص ١٦، ١٨ ـ ٣٠.

الفنية، أو على أقل تقدير، كان الأخطل أقرب شعراء عصره إلى المنهج الجاهلي. ولقد أدرك الصولي الناحية الأولى في حكمه، فقال تعليقاً عليه، مستبعداً أية صلة له بالتقرب إلى النصرانية:

**«هذا... مزح من حماد، وفرط شغف بشعر الأخطل، ولو تأول الناس عليه... لكان ما قال قبيحاً»**[1].

ثم لو أخذنا تلك المقولة على أنها حقيقة، لخرج حماد من ملة الإسلام، وهذا غير صحيح، لأنه عبر عن نقيض ذلك في موضع آخر فقال:

لو مات الأخطل مسلماً، لشهدت له بالجنة بقوله:

**وَإِذَا افْتَقَرْتَ إِلَى الذَّخَائِرِ لَمْ تَجِدْ ذُخْراً يَكُونُ كَصَالِحِ الأَعْمَالِ**[2]

وهذا المبدأ الذي عرضه عن الأخطل، مبدأ إسلامي صريح، ومن المبادىء التي دعا إليها الإسلام، وحماد يربط ذلك بالإسلام والجنة، مما يعكس رأيه هو في شخصية الأخطل من الناحية الدينية، وليس من الناحية الفنية. فالأخطل من الناحية الموضوعية (الخمرة)، أشعر الثلاثة، وهذا ما صرح به علنا للفرزدق، حين اعترض عليه في تقديمه الأخطل عليه، فقال له:

**«لو فضلته بالفسق، لفضلتك»**[3].

والواقع أن الخمرة، وإن كانت قاسماً مشتركاً بين الأعشى والأخطل، فليست هي وحدها التي حببت إليه شعره، ففي شعر معاصريه إشادة بالخمرة، من أمثال الأقيشر[4]، وقد روى شعراً لمعاصريه من أمثال عمار

---

(١) أخبار أبي تمام، ص ٤٧١.
(٢) المرزباني، نور القبس، ص ٢٧٠.
(٣) الأغاني، جـ ٨، ص ٢٨٦.
(٤) المصدر نفسه، جـ ١١، ص ٢٣٧.

ذي كناز، ولكنه كان يرويه لأنه كان كثير العبث به[1]. أما شغفه بشعر الأخطل ذلك الشغف، فيعود إلى أن الأخطل هو الشاعر الذي يعد امتداداً مباشراً للشعر الجاهلي، فهو صدى للنابغة، وهو صدى لزهير، وهو صدى آخر للأعشى، وهو متمسك بالأعراف الجاهلية حتى غلب التقليد على شعره، فكانت صوره وأخيلته، ولغته، ذاتَ الصور والأخيلة واللغة الجاهلية، لولا أنها تكشف عن روح الشاعر وشخصيته.

**ب ــ الفرزدق وجرير:**

يبدو أن موقفه من الفرزدق وجرير، كان موقفاً وسطاً، فها هو يقول للفرزدق، وقد سأله الحكم بينه وبين جرير، أيهما أشعر:

**«هو أشعر إذا أرخى من خناقه»**[2].

وهذه الأحكام، هي تلك التي عرفها النقاد عنهما[3]، بحيث يمكن أن تعد هذه اللفتات منه لفتات نقدية أصيلة، تدل على إدراك وحس ومعرفة. وعلينا أن نتنبه إلى صلابة الرأي الذي يبديه حماد في مواجهة رجل عرف بترفعه على الموالي، وإعتداده بنفسه، حتى إن الناقد لا يأمن شر هجائه، فحماد لا يتردد في إصدار الحكم، مهما تكن عواقبه؛ أيقول له الفرزدق له عندما يفضل الأخطل عليه:

**«إنما تفضْله لأنه فاسق مثلك»**[4]، فيجيبه حماد دون خشية: **«لو فضلته بالفسق لفضلتك»**، أم يرضى الفرزدق عن حكمه: فيقبل تعليل حماد لتفوقه في بعض الحالات، فيقول:

---

(١) المصدر نفسه، جـ ١١، ص ص ٢٣٦ ـ ٢٥٧.
(٢) الأغاني، جـ ٨، ص ٣٥.
(٣) انظر، الفمّام، الفرزدق، ص ص ٣١٥ ـ ٣٢٨.
(٤) الأغاني، جـ ٨، ص ٢٨٦.

«وهل الشعر إلا في الخوف والرجاء وعند الخير والشر»[1]

ومن العجب بعد ذلك أن يزعم عثمان موافي: «أن حماداً كان يستقبح شعر بعض الفحول الإسلاميين كجرير[2]؛ فليس في آثار حماد مثل هذا الزعم، وإنما كان موقفه موقف تقدير واحترام كما رأينا. وكيف يستقبح شعره، وهو يحفظه كله[3]، ولعل فيما قدمنا من موقف حماد من الشعر الإسلامي، وما سنجده بعد حين ما يدحض مقولة موافي الأخرى من أن حماداً كان ينفر من الشعر المحدث ويهجنه[4].

(١) المصدر نفسه، جـ٨، ص ٣٥.
(٢) الخصومة بين القدماء والمحدثين، ص ١٢.
(٣) الأغاني، جـ٦، ص ٧٨.
(٤) الخصومة بين القدماء والمحدثين، ص ١٢.



obeikandl.com

# الفصل الخامس

## ذو الرمة والكميت

### ١ ــ ذو الرمة:

ولئن كانت أحكامه في الأخطل والفرزدق وجرير ـ ذلك الثلاثي الذي شغل الأدب ردحاً من الزمن ـ أحكاماً عامة قد تصدر عنه أو عن غيره، فإن موقفه من ذي الرمة ـ ذلك الشاب الذي غَض منه، كما يقول الفرزدق، وصفه لأبعار الإبل[١]، مع أنه كان منصرفاً إلى فنه ومنكباً عليه، يعطيه من حواسه وقريحته كل جهد وإخلاص[٢] ـ موقف يكشف عن بصيرة عالم منصف، يعرف للأدب حقه، وللأديب منزلته. يقول:

**«قدم علينا ذو الرمة الكوفة، فلم أَرَ أفصح، ولا أعلم بغريب منه»**[٣].

فليس تأخير ذي الرمة عن الفحول، لأنه اهتم بمَيّ، أو بالغ في

---

(١) الأغاني، جـ ١٧، ص ٣١٨. وهو رأي شاركه فيه جرير الذي قال عنه: «بعر ظباء ونقط عروس تضمحل عما قليل». المصدر نفسه، جـ ١٧، ص ٣١٨. ويقول أبو عمرو بن العلاء عنه أيضاً: «إنما شعره نقط عروس تضمحل عما قليل، وأبعار ظباء، لها شم في أول شمها، ثم تعود إلى أرواح الأبعار». المصدر نفسه، ص ٣١٨.

(٢) المطلبي، دراسات في الأدب...، ص ٢١٥.

(٣) الأصفهاني، الأغاني، جـ ١٧، ص ٣١٣.

وصف الصحراء، وإنما جاء في عصر لم يترك فيه أولئك الشعراء فراغاً لأحد، ثم إنهم سَدُّوا جميع المنافذ على غيرهم باشتقاقهم طريقاً لاءمت أهواءهم، وملأت الأجواء السياسية في عصرهم. ويُبَيِّن في موضع آخر مكانة ذي الرمة، فيقول عاقداً مقارنة بينه وبين امرىء القيس:

**«أحسن الجاهلية تشبيهاً امرؤ القيس، وذو الرمة أحسن أهل الإسلام تشبيهاً»**[1]. **«ما أخر القوم ذكره إلا لحداثة سنه، وأنهم حسدوه»**[2].

وها هو يقول عنه أيضاً:

**«قدم علينا ذو الرمة الكوفة، فلم نر أحسن، ولا أفصح، ولا أعلم بغريب منه، فغم ذلك كثيراً من أهل المدينة. . .»**[3].

وهو يروي عنه ما يدل عن معرفة وثيقة به، فيقول:

**«ما تمم ذو الرمة قصيدته، التي يقول فيها: «ما بال عينك منها الماء ينسكب»، حتى مات، كان يزيد فيها منذ قالها حتى توفي»**[4].

ومما يسترعي النظر في هذا الحكم الإيجابي في ذي الرمة، مقارنة بموقف الرواة والعلماء من الشعراء، وما تبعثه دخائل النفس البشرية في مجال الشك والريبة، أن حماداً كان عادلاً في حكمه على ذي الرمة، ولم يُنقل عنه أنه تعرض له بسوء، حتى وهو يتصل به شخصياً عندما نقل خبر كتابته، وذلك على الرغم من أن ذا الرمة كان صريحاً في رأيه من الأبيات التي رواها حماد لبلال بن أبي بردة في أبي موسى الأشعري كما سيمر بنا في حينه.

---

(١) الأغاني، جـ ١٧، ص ٣١٣.
(٢) المصدر نفسه، ص ٣١٢.
(٣) المصدر نفسه، ص ٣٣٤.
(٤) المصدر نفسه، ص ٣٢٥.

## ٢ ــ الكميت بن زيد الأسدي:

ومن الشعراء الأمويين الذين احتك بهم حماد، فلم يروقوا له، الكميت بن زيد، الذي يستنكر عليه الشاعرية، بعد أن اشتد الأخذ والرد بينهما، فيقول له:

**«أنت شاعر؟ إنما شعرك خطب»**[١].

والواقع أن هذا القول متداول عن شعر الكميت، حتى ليقول له الفرزدق:

**«أنت خطيب»**[٢].

وهكذا تجلت لنا أصالة حماد النقدية، وتحققت مقولته التي أثبت فيها قدرته على التمييز بين الأشعار، سواء أكانت هذه الأشعار تخص عصوراً، أم كانت تخص أشخاصاً، فلقد كان راوية، كما كان ناقداً فناناً، محباً للشعر ومتابعاً الشعراء. ومع ما لحقه من ضيم وإجحاف، وما تعرض له من إسقاط، فإن الحقيقة الماثلة، هي أنه كان سباقاً في نقداته ونظراته من جاء بعده، وتتضح هذه الحقيقة في أنه يمثل ذلك المنعرج الحاد في مسار الرواية الشفوية، إلا أنه ظل مستمراً في التيار النقدي القديم الذي يستشعر الجمال، ويتنبه للكلمات دون أن يخوض في التفاصيل. وخير شاهد على مكانته النقدية هذا الخبر الذي يحكي توقف من له كلمة فصل في الحكم على الشعراء، ليستشير حماداً، وهي شهادة رائعة، تبرز جانبه النقدي، وتوثق روايته، يقول الخبر:

**«كان بالكوفة رجل من الفقهاء، تجتمع إليه الناس فيتذاكرون العلم، فذُكر يوماً شعر عمر بن أبي ربيعة فهَجَّنَه، فقالوا له: بمن ترضى، ومر بهم**

---

(١) المرزباني، الموشح، ص ١٧٨.

(٢) المرتضى، الأمالي، جـ ١، ص ٥٩.

**حماد الراوية، فقال: قد رضيت بهذا، فقالوا له: ما تقول: فيمن يزعم أن عمر بن أبي ربيعة لم يحسن شيئاً؟ فقال: أين هذا؟ اذهبوا بنا إليه»**[1].

وإنه لمن قبيل الملاحظة والاستنتاج أن نجد حماداً يتبوأ مكانته اللائقة به، فيشهد له رجال زمانه، وشعراء عصره بالقدرة على تمييز الأشعار والنظر في جيدها من غثها، ولقد وجدناه محط أنظار هؤلاء وأولئك، فكانوا يتوجهون إليه بالسؤال عن الشعر خاصة، حتى إنه في العصر الذي يفترض أنه غير عصره، يحمِّل الخليفةُ المنصُور بريدَه، ليرحل إليه من بغداد، فيسأله رسولُه عن الشعر خاصة، ولولا ثقة المنصور بكفاءة حماد، ولو وجد من يحل محله، لما فعل ذلك. وهكذا رأينا الفرزدق يسأله عن الشعر أيضاً، والفرزدق شاعر، وأحد رواة الشعر المعدودين. أما في عهد بني أمية، فعلاقته بخلفائها وأمرائها، شاهدة على علو شأنه ومقداره عندهم، فكانوا يستقدمونه ويسألونه.

وسواء أفضل جريراً أم الفرزدق، أم الأخطل أم الأحوص، أم ذا الرمة، فإن ما يمكن الإشارة إليه، هو أن حماداً ـ الذي يأتي في مصاف الجيل الأول من الرواة الإسلاميين، أبي عمرو بن العلاء مثلاً ـ يختلف كلية عن أولئك العلماء الذين عاصروه أو جاءوا من بعده، وهو أنه لا يتعصب للقديم، أو يستهجن سماع المحدث، أو روايته، بل يبلغ به الإعجاب إلى حد روايته، والإشادة به والدفاع عنه، كما في موقفه من عمر بن أبي ربيعة وذي الرمة. ولعلنا نتنبه أيضاً إلى مقدار هذا المحفوظ الذي يتمتع به الرجل، وإلى سعة اطلاعه على الموروث الثقافي. والأهم من كل ذلك أن هذه النقدات التي يطرحها حماد، لا تختلف عما ألفناه من نقدات عابرة من أمثاله وسابقيه، مما يؤكد تقارب المستوى الثقافي بينهم، وهو مستوى

---

(١) الأغاني، جـ ١، ص ٨٤.

يعكس الثقافة العربية القديمة قبل أن تتفرع وتتسع مدلولاتها[1].

وإلى جانب هذه المدارك، فإنه لمن الواضح أن حماداً يتميز في حالة عدم الرضى بلذعات نقدية، مثل:

**«ما يعرف هذا إلا في كلاب الحانات»**.

**«ما يعرف هذا إلا دار الماسيديين»**.

**«وثمود، فإن الله لم يفرق بينهما»**.

ومما لا شك فيه أيضاً أنه مدرك كل الإدراك لمعاني الشعر وألفاظه، ولكنه يتمتع بروح هازئة. ضاحكة، كما قال الصولي عن تعليقه على **«حبب إلى النصرانية»**، إن ذلك **«مزح»**.

---

(١) انظر طه إبراهيم، تاريخ النقد الأدبي، ص ص ٨ ـ ٧٣.



obeikandl.com